قراءة في كتاب "شرور شركات الأدوية: معالجة نقدية لصناعة الدواء ومستقبلها



مقدمة: هل نثق بما نتناول؟

أصبحت الأدوية جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية، تُوصف لنا لعلاج الأمراض، وتخفيف الآلام، بل وحتى للوقاية من العلل. نثق في الأطباء الذين يصفونها، وفي الشركات التي تنتجها، وفي الهيئات التنظيمية التي تشرف عليها والصيادلة الذين يصرفونها. لكن ماذا لو كانت الصورة التي نعرفها عن صناعة الدواء ليست سوى جزء من الحقيقة، أو ربما صورة مشوهة عمدًا؟

هذا هو التساؤل الجريء الذي يطرحه الصحفي والطبيب البريطاني بن غولديكر في كتابه المثير للجدل "شرور شركات الأدوية: السبيل إلى إصلاح صناعة الدواء وفسادها" (Bad Pharma: How Drug Companies Mislead Doctors and Harm Patients). لا يدعي غولديكر أن كل شركة أدوية، أو أن كل مشبوه دواء، فاسدة، بل يكشف عن نظام يسمح، في كثير من الأحيان، بإخفاء معلومات حيوية عن الأدوية، مما يؤثر سلبًا على صحة الملايين حول العالم. يفتح هذا الكتاب نافذة على ما يجري خلف الكواليس في صناعة الدواء العالمية، ويثير نقاشًا واسعًا حول الشفافية، والموثوقية، والأخلاقيات في مجال حيوي يمس حياة كل فرد.

الكتاب تحت المجهر: كشف عيوب صناعة الدواء

ينطلق غولديكر من فكرة بسيطة لكنها خطيرة: شركات الأدوية لا تكذب دائمًا، لكنها لا تقول الحقيقة كاملة. يركز الكتاب على عدة محاور رئيسية يرى أنها تمثل نقاط ضعف جوهرية في صناعة الدواء:

1. التجارب السريرية: حيث تبدأ المشكلة

يرى غولديكر أن الخلل يبدأ من قلب البحث العلمي: التجارب السريرية. يمكن التلاعب بهذه التجارب بطرق متعددة لتقديم نتائج تبدو أفضل مما هي عليه في الواقع. يشمل ذلك مقارنة الدواء الجديد بدواء ضعيف أو غير فعال، أو استخدام مقاييس نجاح غير واضحة، أو اختيار عينة مرضى محددة لضمان نتائج إيجابية. يوضح غولديكر أن العديد من التجارب السريرية لا تُنشر نتائجها أبدًا، خاصة تلك التي تفشل في إظهار فعالية الدواء أو تكشف عن آثار جانبية خطيرة. الشركات غالبًا ما تجري عشرات الدراسات،

ثم تختار نشر القليل منها الذي يظهر الدواء في أفضل صورة، بينما تُخفى أو تُؤجل الدراسات السلبية.

يستشهد المؤلف بحالات حقيقية، مثل دواء "باروكستين" (Paroxetine) المضاد للاكتئاب، حيث نُشرت تجارب إيجابية فقط، بينما لم تُنشر تجارب أظهرت عدم فعاليته لدى المراهقين وزيادة خطر الانتحار لديهم. ورغم أن بعض الإصلاحات الجزئية قد تمت في أنظمة الرقابة منذ تلك القضايا، إلا أن غولديكر يرى أن الطريق لا يزال طويلًا لضمان الشفافية الكاملة. هذه الممارسات لا تقتصر على دواء واحد، بل هي نمط متكرر يهدف إلى تعظيم الأرباح على حساب المعلومة الكاملة والدقيقة التي يحتاجها الأطباء والمرضى لاتخاذ قرارات مستنيرة.

2. التسويق المقنع في ثوب العلم

لا يكتفي الكتاب بنقد التجارب، بل ينتقل إلى التسويق الذي غالبًا ما يتخفى وراء ستار العلم. لا يأتي الإعلان دائمًا بشكل مباشر في عالم الأدوية. هناك مؤتمرات طبية ممولة، وأبحاث تُكتب بأقلام مجهولة ثم تُنشر بأسماء أطباء معروفين، ودورات تدريبية تبدو تعليمية لكنها تحمل رسائل ترويجية. العديد من الأطباء لا يدركون أنهم يتأثرون بهذا النوع من التسويق غير المباشر، الذي يهدف إلى تشكيل آرائهم وتفضيلاتهم تجاه أدوية معينة. هذا التسويق الخفي يستغل الثقة الممنوحة للمؤسسات العلمية والأكاديمية، ويحولها إلى قنوات لترويج المنتجات بطريقة غير مباشرة.

يُبرز غولديكر كيف أن شركات الأدوية تستثمر مبالغ طائلة في هذه الأساليب التسويقية، التي تتجاوز بكثير ما يُنفق على البحث والتطوير الحقيقي. الهدف ليس فقط إعلام الأطباء بالمنتجات الجديدة، بل التأثير على قرارات الوصفات الطبية من خلال بناء تصور إيجابي للدواء، حتى لو كانت الأدلة العلمية

غير مكتملة أو متحيزة.

3. الرقابة: قوية في الظاهر، ضعيفة في العمق

يتناول الكتاب أيضًا دور الهيئات الرقابية، مثل إدارة الغذاء والدواء الأمريكية (FDA). ورغم أنها تُقدم كحارس للصحة العامة، إلا أن غولديكر يشير إلى أن بعض هذه الهيئات تعتمد جزئيًا في تمويلها على شركات الأدوية نفسها، مما يخلق تضاربًا في المصالح غير معلن. هذا التمويل، بحسب المؤلف، يمكن أن يؤثر على استقلالية قرارات هذه الهيئات. ورغم تأكيد الإدارات على التزامها بأعلى المعايير، إلا أن هذا التمويل يثير تساؤلات حول مدى قدرتها على فرض رقابة صارمة وحيادية. هذا التمويل المباشر أو غير المباشر من الصناعة يضع الهيئات الرقابية في موقف حرج، حيث يُنظر إليها على أنها قد تكون متساهلة في بعض الأحيان لتجنب الإضرار بمصالح الممولين. يشير غولديكر إلى أن العلاقة بين المنظمين والصناعة ليست دائمًا علاقة خصومة، بل قد تتحول إلى شراكة غير متوازنة. فالهيئات الرقابية غالبًا ما تعتمد على البيانات المقدمة من الشركات نفسها لتقييم الأدوية، مما يترك مجالًا للتلاعب أو الإخفاء المتعمد للمعلومات السلبية. كما أن عملية الموافقة على الأدوية قد تكون سريعة جدًا في بعض الحالات، خاصة للأدوية التي تُعتبر "واعدة"، مما يقلل من الوقت المتاح للتدقيق الشامل والمستقل.

نقد الكتاب: هل الصورة قاتمة أكثر من اللازم؟

1. تجاهل الجانب الاقتصادي المعقد:

إن ابتكار دواء جديد وتطويره يكلف مليارات الدولارات، ويستغرق سنوات طويلة من البحث الذي قد ينتهي بالفشل في مراحله الأخيرة. في هذا السياق، لا يكون السعي وراء الربح مجرد "جشع رأسمالي"، بل هو ضرورة حتمية لتعويض الخسائر الهائلة وتمويل الأبحاث المستقبلية. يرى النقاد أن إهمال غولديكر لهذا السياق الاقتصادي الأوسع يجعله يقدم صورة أحادية الجانب، متجاهلاً الضغوط الهائلة التي تواجهها الشركات. فالموازنة بين الابتكار، والربحية، والأخلاقيات، وحماية المريض هي معادلة في غاية التعقيد، وتصوير الشركات ككيانات شريرة محضة هو تبسيط مخل لواقع متشابك.

2. المغالطات الأسلوبية والانتقائية:

على الصعيد الأسلوبي، يعاني الكتاب من بعض المآخذ التي تؤثر على موضوعيته. يعتمد غولديكر بشكل كبير على لغة عاطفية وعناوين صادمة، مما يجعله يبدو كصحفي استقصائي يسعى لإثارة الرأي العام أكثر من كونه عالماً يقدم تحليلاً محايداً. كما يُعاب عليه "الانتقائية" (picking-Cherry)؛ حيث يركز على أسوأ الحالات وأكثرها فداحة ليدعم أطروحته، متجاهلاً السياق العام الذي تعمل فيه آلاف الأدوية بأمان وفعالية. بالإضافة إلى ذلك، يعاني الكتاب في بعض فصوله من الإطناب والتكرار، والانتقال بين قضايا متشابهة دون ترتيب حاد، مما قد يجعل قراءته متعبة. هذا الأسلوب، وإن كان جذاباً للقارئ العادي، يفتقر إلى الدقة والحيادية التي يتوقعها القارئ الأكاديمي، ويفتح الباب أمام التشكيك في منهجية الكتاب وموضوعيته.

. 3تطورات مهمة أغفلها الكتاب: اليقظة الدوائية والشفافية الحديثة:

أحد التطورات المهمة التي أغفلها الكتاب، أو لم يعطها حقها، هو نظام "اليقظة الدوائية" أو النادرة الجانبية آثاره المنظومة هذه تتابع ،الدواء على الموافقة بعد .(Pharmacovigilance)

المتأخرة التي قد لا تظهر في التجارب المحدودة. في أوروبا وأمريكا، أصبح الإبلاغ عن الأعراض الجانبية إلزاميًا على الشركات، وتوجد قواعد بيانات ضخمة للباحثين المستقلين. لا يدعي أحد أن هذه الأنظمة كاملة، لكن وجودها يعترف بأن الموافقة على الدواء ليست نهاية القصة. على المستوى المحلي، أنشأت الهيئة العامة للغذاء والدواء السعودية المركز الوطني لليقظة الدوائية في عام 2009، وأطلقت 25 مركزًا إقليميًا لتسهيل الإبلاغ. وقد أثمرت هذه الجهود عن قفزات في عدد البلاغات، متجاوزة 47 ألف بلاغ في 2018. ورغم استمرار تحديات مثل "ضعف الإبلاغ"، إلا أن التجربة تعكس تقدمًا حقيقيًا ومهمًا في هذا المجال.

من المهم الإشارة إلى أن العديد من القضايا التي أثارها غولديكر قد شهدت تطورات كبيرة منذ نشر الكتاب. فمثلاً، مبادرة "AllTrials" التي شارك غولديكر في إطلاقها، دعت إلى نشر جميع نتائج التجارب السريرية، وقد لاقت استجابة واسعة. أصبحت منصات مثل gov.ClinicalTrials أكثر شمولاً، كما أن التشريعات في مناطق مثل الاتحاد الأوروبي (مثل لائحة التجارب السريرية للاتحاد الأوروبي CTR EU) تفرض الآن نشر ملخصات النتائج لجميع التجارب السريرية، مما يقلل من مشكلة "النشر الانتقائي".

علاوة على ذلك، بدأ الذكاء الاصطناعي يلعب دوراً متزايد الأهمية في تعزيز الشفافية والرقابة. يمكن للذكاء الاصطناعي تحليل كميات هائلة من البيانات الطبية والأبحاث للكشف عن أنماط التلاعب بالبيانات، أو التضارب في المصالح، أو حتى تزوير الصور والنتائج في الأوراق العلمية. هذه الأدوات توفر طبقة جديدة من التدقيق لم تكن متاحة بسهولة وقت كتابة "شرور شركات الأدوية"، مما يعزز من قدرة الهيئات الرقابية والباحثين المستقلين على كشف الممارسات غير الأخلاقية بشكل أكثر فعالية وسرعة.

حلول واقعية أم مثالية؟

يقترح غولديكر حلولًا مثل نشر جميع نتائج التجارب السريرية (وهو ما تحقق جزئيًا في أوروبا)، وتقليل العلاقة المالية بين الأطباء والشركات. يرى منتقدوه أن بعض هذه الحلول مثالية. فمثلًا، يغفل الكتاب ذكر دور الصيدلي السريري كآلية مراقبة ميدانية، رغم أن هذا الدور قائم بالفعل وفعال في كثير من الأحيان. إن تطبيق هذه الحلول يتطلب تغييرات جذرية في الهياكل التنظيمية والتشريعية، بالإضافة إلى تغيير في ثقافة الصناعة والممارسات الطبية.

صدى الكتاب وانتشاره: بين التأييد والنقد

أحدث كتاب "شرور شركات الأدوية" ضجة عالمية واسعة؛ فوصفته صحيفة Guardian The بالتحقيق الاستقصائي الشامل، بينما اعتبرته Economist The عملاً صادماً ومجادلاً ببراعة. تباينت آراء النقاد بين مؤيدٍ يراه "صرخة غضب" ضد تغليب الأرباح على صحة المرضى، ومعارضٍ ينتقد إغفال الكاتب للواقع المعقد للمنظمين والإنجازات الطبية الكبرى كعلاجات السرطان.

تجاوز تأثير الكتاب حدود القراءة ليصبح محركاً للتغيير؛ حيث تُرجم لعدة لغات منها العربية، وكان حجر الزاوية في إطلاق حملة "AllTrials" العالمية عام 2013 بالتعاون مع مؤسسات مرموقة مثل Cochrane و BMJ. تهدف هذه الحملة لفرض الشفافية الكاملة ونشر نتائج كافة التجارب السريرية، وقد وصلت أصداؤها للبرلمان البريطاني، مما رسخ مكانة الكتاب كأداة مساءلة حقيقية في مواجهة واحدة من أكثر الصناعات تأثيراً في العالم.

لماذا يبقى الكتاب مهمًا؟

على الرغم من كل الملاحظات والانتقادات، يتفق الكثيرون على أن الكتاب لعب دورًا في فتح نقاش عالمي حول الشفافية في صناعة الدواء. إنه لا يقدم إجابات نهائية، لكنه يطرح أسئلة ضرورية. إنه كتاب يدعو إلى التفكير، لا إلى الخوف، دون إنكار دور الطب الحديث. يمنح القارئ أدوات لفهم ما يحدث خلف الإعلانات الطبية.

خاتمة: كتاب "شرور شركات الأدوية" ليس كتابًا ضد الطب، بل هو دفاع عن حماية الطب من التشويه. من المهم أن تدرك أنك لن تقرأ تحقيقًا علميًا محايدًا، بل بيانًا صحفيًا عاطفيًا. قد يبالغ الكاتب، ويخلط بين الفساد والعيوب الهيكلية، ويغفل جوانب مثل تطور اليقظة الدوائية. لكن هذه العيوب لا تبطل القيمة التي يلفت إليها الكتاب: أن صحة الإنسان لا ينبغي أن تكون رهينة للتسويق أو الربح. الدرس الحقيقي هنا هو: لا ثقة عمياء، ولا تشاؤم أعمى. كن واعيًا، كن متسائلًا، ولا تتردد في البحث عن الحقيقة كاملة.